في مصر الاسلامية

السيادة المصرية
في صدر الاسلام

للدكتور حسن ابراهيم حسن
أستاذ التاريخ الاسلامي بكلية الآداب

كان الخراج في الدولة الاسلامية من أهم موارد بيت المال ، فلما فتح العرب مصر وجبا عمرو بن العاص خراجها لم يرض عمر بمقدار الخراج ، وظن في عمرو الظنون ، فأرسل إليه ابن مَسلمة ليقاسمه ماله ، ثم عزله سنة ٢٣ هـ قيل وفاته بقليل عن ولاية الصعيد وأسندها إلى عبد الله بن سعد بن أبي سرح . فلما ولي عثمان الخلافة عزل عمراً وولى ابن أبي سرح مصر كلها ، فكان ذلك سبب الجفاء والعداوة بين عمرو وعثمان حتى قيل إن عمراً أخذ يؤلب الناس على عثمان وعلى سياسته وإن له ضلعاً في مقتله

على أن ابن أبي سرح لم يكد يستقر في ولاية مصر حتى انتقض الرومان وكتب أهل الاسكندرية إلى قسطنطين بن هرقل امبراطور الروم يصفون له ما هم عليه من الذلة والهوان ويهونون عليه فتح الاسكندرية لقلة من بها من حامية المسلمين ، فأنفذ قسطنطين قائده الأرمني مانويل Manuel إلى الاسكندرية على رأس جيش كثيف فاستولى عليها وأخذ جنده يعيثون في الأرض فساداً حتى وصلوا إلى مدينة نقيوس

ولم يكن قبط مصر يرحبون برجوع بلادهم إلى حوزة الرومان خوف أن يسوموهم الخسف والهوان لما قاموا به من مظاهرة العرب ورضائهم بحكمهم من جهة ، ولما كان بينهم وبين الرومان من الخلاف المذهبي الذي كان مصدر شقائهم ومصائبهم في عهد الرومان من جهة أخرى . فكأن عودة مصر إلى حوزة الروم معناه زوال تلك الراحة والطمأنينة اللتين تمتع بهما المصريون في ظل الحكم الاسلامي

لهذا كتب قبط مصر إلى عثمان يلحون في إسناد حرب الرومان إلى عمرو بن العاص لما أحرزه في حروبه معهم من الخبرة الناشئة عن طول المراس ، ولأنهم أنسوا فيه الدراية والكفاية على رد غارات الأعداء بخلاف ما كانوا يعرفون عن واليهم الجديد ، فولى عثمان عمرا الاسكندرية على أن يتولى حرب الرومان وإخراجهم من مصر

وفي مدينة « نقيوس » دار القتال بين جند عمرو وجند مانويل في البر وفي النهر ، وكثر الترامي بالنشاب حتى وقع فرس عمرو من تحته . ثم طلب المسلمون المبارزة بين فارس منهم وفارس من الرومان فكانت الغلبة لفارس المسلمين فثارت حميتهم وشدوا على العدو وانتصروا عليه وقتلوا قائده ، ثم تعقبوه إلى الاسكندرية وأعملوا السيف في رقابهم . وهنا أمر عمرو بإبقاء رحى الحرب ، وأن يبنى في الموضع الذي رفع فيه السيف مسجد أطلق عليه فيما بعد « مسجد الرحمة » وهدم عمرو سور الاسكندرية ، وبهذا ثبتت أقدام العرب[1] في مصر سنة ٢٥ هـ

أقام والي مصر الجديد في الفسطاط يراقب الأمور عن كثب وينتظر ما تلده تلك الحرب الناشبة بين العرب والروم في مصر . ولا شك أن انتصار عمرو ثبّت قدم ابن أبي سرح في ولايته[2] . لهذا حذو سلفه في الاصلاح الداخلي وفي الفتوح الخارجية، أما الاصلاح الداخلي فلم يترك لعمرو شيئاً جديداً اللهم إلا ما كان في زيادة الخراج في ولايته حتى بلغ أربعة عشر مليوناً (إن صح أن يسمى هذا إصلاحاً)

أما من ناحية الفتوح الخارجية فإن ابن العاص كان قد أمّن حدود مصر من جهة الغرب بفتح برقة عام ٢١ هـ صلحاً ، وبفتح طرابلس سنة ٢٤ هـ عنوة . ثم بعث نافع بن القيس الفهري (وكان أخا العاص بن وائل لأمه) إلى بلاد النوبة فقاتله أهلها قتالاً شديداً فانصرفوا ، فلما ولي مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح غزا إفريقية سنة ٢٧ هـ وقتل ملكها وغنم المسلمون الغنائم الوفيرة

(١) ممن اتفق على هذه السنة اليعقوبي (ج ١ ص ١٨٩) والبلاذري ص ٢٢٨ وفي قول آخر له سنة ٢٣ هـ . والكندي ص ١١ ممن كتاب الولاة ، وابن الأثير (الكامل) ج ٣ ص ٣٩ ، والمقريزي الخطط ج ١ ص ١٦٨ والسيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ٧٠ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٨٨

(٢) أراد عثمان أن يجعل عمراً على الحرب وعبد الله بن سعد بن أبي سرح على الخراج فأبى عمرو وقال : أنا إذن كماسك البقرة بقرنيها وآخر يحلبها

حتى قيل إن سهم الفارس بلغ ثلاثة آلاف دينار والراجل ألف دينار[١]

ثم وجه ابن أبي سرح همه إلى الجنوب فغزا بلاد النوبة من جديد ، وبلغ دنقلة فى سنة ٣١ هـ وقاتل أهلها قتالا شديدا[٢] ، ومع ذلك فإن النصر لم يتم لابن أبي سرح ، فلجأ إلى مهادنة النوبيين وعقد معهم صلحاً رواه من المؤرخين البلاذري والكندى والمقريزى وترجمه لين بول فى «تاريخ مصر فى العصور الوسطى» (ص ٢٠ — ٢١) وهو أشبه بمعاهدة اقتصادية بين مصر والنوبة : هذه تمدهم بشىء من الحبوب والعدس، وتلك ترسل إليهم الرقيق[٣]

كذلك تولى ابن أبي سرح قيادة معركة بحرية نشبت سنة ٣١ هـ[٤] بين العرب والبيزنطيين تحت قيادة ملكهم قسطنطين بن هرقل ، وكان النصر للعرب على الروم فى هذه الموقعة التى عرفت باسم موقعة « السوارى » أو « ذات السوارى » لكثرة سواري المراكب التى اشتركت فى القتال[٥]

أما مثير هذه الحرب فهو قسطنطين بن هرقل فلقد دبّ فى نفسه دبيب السخط فعمل على الأخذ بالثأر لما أصاب المسلمون من أملاكه فى غرب مصر ، فخرج فى عدد من المراكب يتراوح بين خمسمائة وألف على ما ذهب إليه المؤرخون على اختلافهم ، وخرج ابن أبي سرح بمائة مركب ، واشتبك القتال بالغرب من الساحل الافريقى فى الفرضة المسماة بفرضة زيواره[٦]

حسن ابراهيم حسن

(١) البلاذرى ص ٢٣٤ ، والكندى ص ١٢ (ذكر البلاذرى ان الغزو تم فى سنة ٢٧ أ: ٢٨ أ ، ٢٩ هـ)

(٢) يدلك على شدة القتال بين العرب وأهل النوبة (أو الأساود) هذا البيت الذي رواه الكندى :

لم ترعينى مثل يوم دمقله والخيل تعدو بالدروع مثقله

(٣) البلاذري ص ٢٤٥ — ٢٤٦ والكندى ص ١٢ — ١٣

(٤) يؤكد الطبرى أن هذه المعركة حدثت سنة ٣١ هـ لا ٣٤ هـ كما ذكر بعض المؤرخين .

(٥) روى الطبرى أن عدد المراكب بلغ خمسمائة (وقيل ستمائة) وقال الكندى ص ١٣ أن عدد مراكب الروم بلغ ألفاً (وقيل سبعمائة) وبلغ عدد مراكب المسلمين مائتين

(٦) الطبري (طبعة القاهرة) ج ٥ ص ٦٩ ، ٧٠

حظى بالشىء ...

لأستاذ جليل

الرافعي ، المجمع اللغوى ، أزهرى المنصورة ، اليازجى ... ...

— ٢ —

طالع الأستاذ الرافعى (رحمه الله) كلمة المجمع اللغوى (البلاغ ١٧ شوال ١٣٥٢) فنشر مقالة عنوانها (أول الغلط من المجمع اللغوى ، رد على رد) — البلاغ ١٨ شوال ١٣٥٢ — أطنب[١] فيها فى أمر البرقية ثم قال : « وانتهى الأستاذ (أى مدره[٢] المجمع الشيخ حسين والى) إلى مادة اللغة فلم يأتنا بكلام من الفصيح جاء فيه مثل استعمال (يحظى بتشريف) بل سكت عن هذا مع أنه هو كل ما نريد . ثم قال : إنه يجوز استعمال الباء مع حظى واستدل بقول الزمخشرى فى الأساس (حظى بالمال وأحظاه الله بالبنين) وهاهنا أردنا أن يبحث أعضاء المجمع فى وجه استعمال حظى بالمال وحظى بالبنين ، فانهم إن اهتدوا إليه فسيرونه رداً عليهم . ولا نزال نطلب منهم أن يأتونا بالتاريخ الاجتماعى لهذا الفعل (حظى) لينكشف لهم الخطأ فى استعماله . ثم قال فضيلته : (إنهم استعملوا التشريف بمعناها الأصلى لا بمعنى الحضور ، ومعموله مفهوم أى تشريف جلالته إياه) قال هذا وسكت عن الباقى ، والباقي هو قولهم (تشريف جلالته إياه لافتتاحه) فاذا لم تكن هذه اللام فى (افتتاحه) نصاً فى تقييد معنى التشريف بالحضور فما موضعها هنا ؟ إن المجمع على كل حال قد حظى بتشريف جلالته إياه) إذا أريد من التشريف معناه الأصلى ، فان هذا المجمع إنما هو عناية سامية من جلالة مولانا الملك وأثر من آثار فضله وبركة من بركات يمنه وكل هذا تشريف ، فعلى تأويل حضرة العضو يكون كلامهم لغواً لا محل له ، وإلا فرده هو لغو لا محل له »

* * *

(١) الاطناب البلاغة في المنطق والوصف مدحاً كان أو ذماً ، وأطنب فى الكلام بالغ فيه (اللسان)

(٢) قال أبو زيد : المدره لسان القوم والمتكلم عنهم (اللسان)